لجحكم رجال الأدب العربي

السباعي بيومي

يسر جنابه على المبرد بجنايته على المرصفي

للدكتور زكي مبارك

— ٢ —

ما الذي يوجب أن تشعر يا سيد سباعي بمثل لسع العقرب كلما لوّحتُ لك باسم الشيخ المرصفي ؟

ما الموجب لهذا الفزع وقد مات المرصفي ومات ثم مات ؟

السبب أوضح من أن يحتاج إلى من ينبّه إليه القراء ، وهو عرفانك بأني سأقهرك على الاعتراف بأن كتابك « تهذيب الكامل » لن يظهر سليما من الأغلاط يوم تطبعه للمرة الثانية إلا وأنت مدينٌ أثقل الدَّين لكتاب « رغبة الآمل في شرح الكامل » وهو الكتاب الذي دعوتَ الناس إلى الصدوف عنه ليخفى عليهم فضل مؤلفه عليك

وشبح الشيخ المرصفي سيلاحقك في يقظتك ومنامك ، لأن كتابك لن يطبع بعد اليوم قبل أن تشهد كل صفحة من صفحاته بأنك استعنت بتحقيقات الشيخ المرصفي ، وقبل أن تعترف علانيةً بأنك خضعت لجبروت الحق ، بعد أن طال جدالك فيه

ولو كان الله منحك نعمة الذوق لقدرت قيمة التعصب لرجل ميت لا أنصار له ولا أشياع ، ولا ينتظر أن يكون للتعصب له بارقة من بوارق الثواب ، وقد عاش ما عاش وهو معدوم السناد من العصبيات ، فما استهانتك بالوفاء وهو معنى لا يقيم له الميزان غير أحرار الرجال

ثم ماذا ؟ ثم وجدتَ الفرصة للتخلص من تهمة السرقة من كتاب النثر الفني فيما يتصل بنشأة فن المقامات في الأدب العربي ، لأن كتاب النثر الفني ظهر في سنة ١٩٣٤ وأنت فيما تزعم أعلنت هذا الرأي في سنة ١٩٣٣

نفسي أسألها : لماذا يزدريني هذا الأحد ؟ فإن كان لسبب حق فالحكم لا يدفعه عني ، وإن كان لسبب من هذه الأسباب العارضة ، فأنا إذن أولى بأن أزدري ذلك الأحد ، وهو على خطأ وأنا على صواب

وقال كاتب الرسالة : « لقد جاهدت كثيراً في ميدان الصحافة والأدب ثم بلغت مرتبة نائب . فهل هذا منتهى جهدك ؟ يبدو لي أنك تبلورت في مركزك الأخير ! »

فالذي يقرأ هذا الكلام يخيل إليه أن كرسي النيابة نهاية طريق لي أو مرحلة على الأقل في تلك الطريق

على أن الحقيقة فيما أرى أن كرسي النيابة تعريجة في منعطف الطريق الذي أسير فيه ، وأعني به طريق الأدب والكتابة . وكل ما ألتزم به على هذا الكرسي أن أخدم الدائرة التي أنوب عنها ، وقد فعلت ؛ ولي أن أقول إن نائباً آخر لم يفعل لدائرته الانتخابية خيراً مما أفعل . وإلى جانب ذلك أؤدي عملي في النيابة على الوجه الذي أراه ، ولا أستبيح لنفسي أن أتخلف عن جلسات المجلس إلا لعذر قاهر سواء كان لي كلام في الجلسة أو لم يكن لي فيها كلام

تلك هي الصورة الصحيحة لمكان النيابة من حياتي العامة ، وسأعود من تلك التعريجة راضياً منتبطاً في اليوم الذي تأذن لي فيه حالة الأدب بيننا نحن المشرقيين أن أفرغ للكتابة و «العمل» الأدبي الذي أرتضيه

وصفوة القول أنني أعز الأدب هذا الإعزاز لأنه منحة لا يعطيها إنسان ، فلن أعلق حياتي ولا قيمتي بمنحة يعطيها أحد من الناس ولو كانت الشهرة الأدبية التي قد يخيل إلى قوم أنها بغية المتمني وغاية الغايات ، فإن جاءت الشهرة غير ممنونة ولا مبخوسة فقد سعت إلى وما سعيت إليها ، وإن أبت أن تجيء على ما أختار فلست أخطو إليها خطوة ... فكيف بالوظيفة والمنصب وما إلى هذه الأشياء ؟

عباس محمود العقاد

فهل تصدق فى سريرة نفسك أنك نجوت من صولة الحق ؟

وهل تظن أن الأسانيد المدونة فى مقالاتى ومؤلفاتى غير قديرة على إلقاء تهمة السرقة فوق منكبيك بصورة لا تبقى لك فرصة من فرص المكابرة والروغان ؟

إليك أسوق البراهين التى تقطع بأن الشيخ الإسكندرى نقل عنى ، والتى تجزم بأنك سرقت من كتابى

والحمد لله الذى أتاح هذه الفرصة ، ليعرف تلاميذك بدار العلوم أنك تقدم إليهم معارف أدبية لم تشق فى تحصيلها لحظة أو لحظتين ، وإنما نهبتها فى الخفاء ، ولم تكن تعلم لسوء حظك أن الحقوق ترد إلى أصحابها ، ولو بعد حين

أنت قلت فى كلمتك الثانية إنى التفت إلى نص زهر الآداب مصادفة حين قمت بتصحيحه فى سنة ١٩٢٥ ، وهذا حق ، فالمصادفة هى التى هدتنى إلى النص الذى يجعل بديع الزمان متأثراً بابن دريد فى إنشاء المقامات ، ولكن كيف رأيت لهذا النص قيمة تستحق التسجيل ؟ إنما كان ذلك لأن الدكتور « أحمد ضيف » كان حدثنا فى محاضراته بالجامعة المصرية أن فن بديع الزمان فى المقامات مستوحى من الآداب الفارسية ، ولولا ذلك لكان من الجائز أن يمر نص زهر الآداب بدون أن ألتفت إلى قيمته فى تاريخ الفنون الأدبية

وقد حدثت الدكتور أحمد ضيف عن هذا النص فأجاب بأنه لا يزال عند رأيه الأول ، ثم حدثت الدكتور طه حسين عن هذا النص فجادلنى فيه وانتهينا إلى رأى سجلته فيما بعد بالتفصيل

وفى سنة ١٩٢٧ شرعت فى تأليف كتاب النثر الفنى باللغة الفرنسية وأثبت فيه النص الذى اهتديت إلى قيمته فى زهر الآداب ، ومعنى ذلك أنى حررت هذه المسألة قبل أن يلتفت إليها الشيخ الإسكندرى فى سنة ١٩٣٠

ولكن كتاب النثر الفنى لم يظهر فى مكاتب باريس إلا فى سنة ١٩٣١ فكيف يصح القول بأن الشيخ الإسكندرى نقل عنى ؟

لم ينقل الشيخ الإسكندرى فى سنة ١٩٣٠ عن كتاب ظهر بالفرنسية فى سنة ١٩٣١ فذلك غير معقول ، وإنما نقل الشيخ الإسكندرى عن كتاب نشره زكى مبارك فى سنة ١٩٢٩ وهو الطبعة الثانية من زهر الآداب ، فى هامش الصفحة ٣٠٧ قال زكى مبارك فى التعليق على عبارة الحصرى ما نصه بالحرف :

« مؤدى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وأنه حاكى ابن دريد فى أحاديثه ، وقد استغللت هذا النص فى كتابى الذى وضعته بالفرنسية عن النثر الفنى فى القرن الرابع ، وقد دهش المسيو (مرسيه) لهذه الفكرة وعجب كيف اتفق الناس على أن البديع هو منشئ فن المقامات ، ولكنى من جانب آخر أذكر أنى لم أر مثل هذا الكلام فى غير زهر الآداب ، ولا أزال أتلمس له مصدراً آخر ، ولم أعثر على شىء إلى اليوم ، ويزيد فى الدهشة أن صاحب زهر الآداب يروى المسألة على أنها مقبولة معروفة لم تمس بنقض ولا تكذيب ، وقد نقلها عنه ياقوت فى معجم الأدباء » .

ذلك ما جاء فى هامش الجزء الأول من كتاب زهر الآداب وقد ظهرت طبعته الثانية سنة ١٩٢٩ وكان الشيخ الإسكندرى يقتنى جميع الطبعات كما حدثنى غير مرة ، رحمه الله

ومع ذلك لم تقف المسألة عند كلام أحدث به أساتذة الأدب العربى ثم أثبته فى هامش كتاب يظهر فى سنة ١٩٢٩ فقد نشرت مقالاً رنانا فى مجلة المقتطف (عدد إبريل سنة ١٩٣٠) نشرته وأنا مزهو زهو الطاووس تحت عنوان : « إصلاح خطأ قديم مرت عليه قرون فى نشأة فن المقامات »

وكان من أثر ذلك المقال الرنان أن تثور بينى وبين المرحوم مصطفى صادق الرافعى معركة قلمية على صفحات المقتطف

فهل من المعقول أن تثور معركة قلمية بين زكى مبارك ومصطفى الرافعى ولا يصل صداها إلى الشيخ الإسكندرى « وكان من المشتركين فى المقتطف » وهى فى موضوع يتصل بدروسه فى دار العلوم ؟ !

من الكلام الذى نشرته فى سنة ١٩٢٩ بهامش الطبعة الثانية من زهر الآداب ، والمقال الذى نشرته فى المقتطف سنة

١٩٣٠ أخذ الشيخ الإسكندري فكرة القول بأن بديع الزمان نقل فن المقامات عن ابن دريد ، وإلا فكيف سكت الشيخ الإسكندري عن هذه المسألة في كتابه : « تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي » الذي ظهر سنة ١٩١٣ وكتابه الموسوم بالوسيط الذي شاركه في تأليفه الشيخ مصطفى عناني وقد ظهر قبل سنة ١٩٢٥ ؟

لماذا أجّل الشيخ الإسكندري هذه المسألة إلى المذكرات التي ظهرت في سنة ١٩٣٠ وهي المذكرات التي حدثتنا أنها « طبعة أخيرة » ؟!

إنما اهتدى الشيخ الإسكندري في « الطبعة الأخيرة » بما قرأ زكي مبارك في هامش زهر الآداب سنة ١٩٢٩ وبما نشر زكي مبارك في المقتطف سنة ١٩٣٠

ولك أن تغيّر هذه الوقائع ، إن استطعت ، ولن تستطيع

ثم أذكر أن الأستاذ أحمد الزين أرسل إليّ خطاب ثناء بعد قراءة مقالي في المقتطف ، وأحمد الزين كان يسمُر كل ليلة مع الشيخ محمد عبد المطلب ، فلو كان من الصحيح أن أبناء دار العلوم كانوا يعرفون جلية هذا الأمر منذ بداية القرن العشرين لكان من الواضح أن يفهم الأستاذ الزين أن مقالي في المقتطف لم يأت بجديد حتى يستوجب خطاب ثناء

وأنا أتحداك أن تثبت أن شخصاً واحداً من أبناء دار العلوم تحدث عن هذه المسألة في كتاب مطبوع أو مخطوط قبل أن أتحدث عنها في هامش زهر الآداب سنة ١٩٢٩

انتهت قصة الشيخ الإسكندري ، فما قصتك أنت ؟

لا تقل إنك قرأت مذكرات الشيخ الإسكندري في طبعتها الأخيرة سنة ١٩٣٠ ، ولكن قل إنك كنت ناظراً لإحدى مدارس المعلمين الأولية ، وهي مدرسة يدخلها في كل شهر ثلاث نسخ من أعداد المقتطف ، فهل يكون من الممكن أن تثور معركة قلمية بين زكي مبارك ومصطفى الرافعي على صفحات تلك المجلة ولا يلتفت إليها أحد من الأساتذة أو الطلاب ؟

اسمع أيها الأستاذ المفضال :

أنت لم تقدم نصاً يشهد بأنك سجلت كلمتك في عبارة زهر الآداب قبل ظهور الطبعة العربية من كتاب النثر الفني سنة ١٩٣٤ فلم يبق إلا النص المسجّل عليك في مجلة السراج سنة ١٩٣٧ وهو قاطع بأنك سرقت من كتاب النثر الفني وإليك القرائن :

أولاً — من المفهوم عند جميع الباحثين أن الباحث يشير إلى الطبعة الأخيرة من الكتاب الذي ينقل فقرة من فقراته ، فكيف تشير أنت إلى طبعة زهر الآداب الشائعة على هامش العقد الفريد وقد انقرضت من الأسواق ، ولا تشير إلى طبعة زكي مبارك التي ظهرت في سنة ١٩٢٩ ؟ أليس ذلك شاهداً على أنك تخشى أن يفطن القراء إلى أنك انتهبت عبارة زكي مبارك ؟

ثانياً — أنا لم أعيّن النظرية التي انتهبتها من كتاب النثر الفني حين هددتك بكشفها أمام قراء الرسالة ، فكيف عرفت أن هذه النظرية هي المقصودة بالذات ؟ ومن أدراك أيها الأستاذ ، أنها سكين ؟!

ثالثاً — أشفقت نفسك في التهوين من هذه النظرية ، فما الموجب لذلك التهوين لو كانت من مبتكراتك أو مبتكرات أحد أساتذتك بدار العلوم ؟

إنك تهوّن من شأن هذه النظرية لأنها من مبتكرات زكي مبارك ، فهي عندك شيء عديم القيمة لا يستوجب أن يُزهى به الرجل زهو الطاووس !!

هذه القرائن هي حجتي عليك ، وهي البرهان القاطع على صحة العبارة التي تقول :

« يكاد المريب يقول خذوني »

ما الموجب لأن تقول إن كشف هذه النظرية لا يساوي كشف مقبرة توت عنخ آمون ؟

إنما كان مَثَلُك مَثَل اللص الذي يهوّن شأن ما سَرَق لينجو من العقاب وأنت تدرك الخطر الملفوف في هذا الملحظ الدقيق !!

وهناك نظرية أخرى متصلة بالمقامات ، وهي نظرية قائمة النص عليها في النسخة الفرنسية التي ظهرت سنة ١٩٣١ ولم تفتني

فى النسخة العربية التى ظهرت سنة ١٩٣٤ فهل ترى لها «خبراً» فى «الطبعة الأخيرة» من مذكرات الشيخ الإسكندرى ؟ وهل تراك حدثت بها قراء مجلة السراج فى سنة ١٩٣٧ ؟

وهنالك نظرية ثالثة متصلة بالمقامات وفيها ردٌّ على المرحوم الشيخ محمد عبده وهى مثبتة فى كتاب «ليلى المريضة فى العراق» فهل تعرف هذه النظرية ؟

وهنالك تحقيق متصل بالمقامات، وهو موضوع مقال حدثت به صاحب «الرسالة» منذ أكثر من عامين ولم أقدمه لمجلة الرسالة إلى اليوم، لأنه يفرض الرجوع إلى عادات بعضها فى النجف، وبعضها فى بغداد، فهل تعرف موضوع ذلك التحقيق ؟ وهل تعرف ما بقى مطوياً من أسرار المقامات ؟

أترك هذا الجدال لأوجه الكلام إلى الدكتور عبد الوهاب عزام وكان ألقى محاضرتين عن بديع الزمان فى سنة ١٩٣٤ فقد حدثنى أمام جماعة من أساتذة الجامعة المصرية أنه اعتمد على كتاب النثر الفنى فى النظرية التى تقول بأن بديع الزمان نقل فن المقامات عن ابن دريد، فكيف غاب عن الدكتور عزام أن أبناء دار العلوم نشروا هذه النظرية قبل عشرات السنين ؟

أما بعد فقد ظهر أن الأستاذ السباعى بيومى سَرَق من كتاب النثر الفنى ما سرق، وتبيّن للجمهور أنه يقدم لتلاميذه زاداً نهبه من كتابى بدون استئذان، ولست من الملائكة حتى أسكت عمن يسرق منى أكثر من أربع سنين

والأستاذ السباعى يبالغ فى شتمى عامداً متعمداً ليقهر أصدقاءنا على وقف هذه الخصومة الأدبية، عساه ينجو من بطش قلمى

وأقول إنى لم أكن أعرف أن اللغة العربية غنيّة بألفاظ الهجاء قبل أن أقرأ كلمته الثانية، وأنا من الذين يدينون بوجوب طلب العلم من المهد إلى اللحد، فمن واجبى أن أرحب بمن يعلمنى طرائق السباب، ومن أجل هذا أرفض كل الرفض أن ينتهى ما بينى وبينه بالصلح، ولو صدر عن الرجل الكريم الذى أمرّ فى أذنى عبارات ونحن بوزارة المعارف

لقد شتمنى هذا الرجل ليصرفنى عن تسجيل ما سَرَق منى، فهل نجا من تطويقه بتلك السرقة البلقاء ؟

لو كان يعقل لعرف أن السرقة من كتاب النثر الفنى لا تنقص من أقدار الرجال، لأن كتاب النثر الفنى كالشمس يعيش فى ضيائها أرباب الوفاء، كما يعيش أصحاب العقوق

السباعى يهدد ويهدد بنقد مؤلفاتى، وهو من فضلها يعيش، فهل رأيتم أقبح وأشنع من هذا الكفران ؟

والسباعى يكاثرنى بأبناء دار العلوم، فأين كان يوم دفعت عنها طغيان كلية الآداب وأنا مدرّس بكلية الآداب ؟

وكيف يُنكَر جميلى فى حماية تلك الدار من البنى والعدوان ؟

وفى الأسبوع المقبل يسمع الأستاذ السباعى كلاماً لم يخطر له فى بال !

زكى مبارك

ظهر حديثاً كتاب:

الحرب الحديثة

وما تُلقيه على مصر والشرق العربى من دروس

تأليف الأستاذ

رياض محمود مفتاح

المحامى

وهو دعوة لمصر والشرق العربى إلى النهوض على ضوء الحوادث العالمية الأخيرة.

يطلب من ادارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة